متن سخنرانی آقای مارك‌برژه دانشمند فرانسوی و مدرس دانشکدهٔ ادبیات دانشگاه دمشق در دانشکدهٔ الهیات و معارف اسلامی دانشگاه تهران

آقای مارك‌برژه

ابو حیان التوحیدی

ممثل من ممثلی علم الاخلاق فی القرن الرابع الهجری

من الکلمات ما یزخر بالمعانی ، و یستثیر المشاعرالانسانیة ، ویتصف بالقدرة علی مس شغاف القلوب ، و یحتفظ فی ذاته بقیمة عالمیة . من هذاالقبیل کلمة الصدافة التی تفرض و لاشك ، الاحترام لاول وهلة ، ولکنها تسترعی الانتباه ایضاً بما تستدعیه من تذکر لمعانی صلات الانسان بأخیه الانسان ، و ما یستتبع تلك الصلات من صعوبات .

ان موضوع الصداقة هو من تلك المواضیع التی تخص البشریة بأسرها ، وقد وجد من جهابذة الفکر فی جمیع الحضارات ، وان کانوا قلة ، من کرس له مؤلفات بأسرها و هکذا نری ان اباحیان قدالف ، من بعد ارسطو عندالیونان و شیشرون عند اللاتین کتابا عن الصداقة ألیس هوالذی یقول ؟

"سمع منی فی وقت بمدینةالسلام ، کلام فی الصداقة والعشرة والمؤاخاة و الالفة و ما یلحق بهامن الرعایة والحفاظ والوفاءوالمساعدة والنصیحة والبذل و المؤاساة والجود والتکرم مما قدارتفع رسمه بین الناس وعفی اثره عندالعام والخاص" .

این متن را نیز آقای دکترمحمد غفرانی جهت چاپ آماده نموده است

ليست رسالة الصداقة مجرد اثر من آثار الشباب ، و ماهى بمحاولة مصطنعة بعض الشئى ، ارادلها كاتب ناشىء ان تكون مجالا لتجربة نبوغه ، انها قدجاءت فى ختام حياة طويلة ، و من تجارب عديدة ، و هى تنبجس على نحو شبه عفوى ،معبرة فى آن واحد عن اعمق مشاعر ابى حيان والصقها بذاته .

والقارى لهذه الرسالة يشعرانه يقف من ورائها على وصية ابى حيان التى كشف بها عن سروجوده .

يتناول ابوحيان موضوع الصداقة مسوقا اليه بدافع داخلى لم يكن فى وسعه التخلص منه، و قدمسبق ان راينا الى أى حد كان يمكن لهذا الموضوع أن يفى بغرض مثله الاعلى ، ولكن ينبغى أن نعلم جيدا أن أباحيان لايكتفى بأن يبثنا خواطره وانما هويبوح بدخيلته ، و يكشف لنا عن حالته النفسية وهكذا كان على الرجل الذى «مافى النفس من الحرق والاسف والحسرة والغيظ والكمد والوجد » و يعانى مايعانيه من «هذا الانقباض والعوزاللذين قد تقضاقه ته و نكثا مرته وأفسدا حياته و قرناه بالاسى و حجباه عن الاسى لانه فقد كل مؤنس و صاحب و مشفق "أن يمتدح الصداقةالسعيدة صداقة أبى سليمان وابن سيار.

* * *

قبل أن نحدد مفهوم الصداقة والصديق كما عرضه ابوحيان فى الخواطر التى تكلم عنها فى رسالة الصداقة ، علينا أن نحاول الكشف عن السياق الواقعى لفكره ، بعد أن نعرف الطريقة والمصادر التى استعان بها على ذلك .

ان التوحيدى يعلم منذالبدايةأن هذا الموضوع واسع، فالصداقة ، كل مايمس الحياة الانفعالية للانسان . لا يمكن فصلها عن كثير من العواطف والمواقف الاخرى ان الكلام عن الصداقة يعنى ـ كما يقول ابو حيان ـ الكلام عن "العشرة والمؤآخاة والالفة و ما يلحق بها من الرعاية والحفاظ و الوفاء والمساعدة والنصيحةو البذل و المواساة والجد والتكرم" ذلك هوالجانب الايجابى للصداقة، الذى ينوه التوحيدى بندرته ولايفصله فى استنتاجه الاول عن الجانب السلمى . و هو ما يتصل بالوفاق والخلاف

والهجر والصلة والعتب والرضا والملق والاخلاص والرثاء والنفاق الخ ...

على ان‌التوحیدی لایقف طویلا عند هذه الاعتبارات العامة ، فهمه‌الاول کما هو أن یضع نصب أعیننا المثال الحسی للصداقة السعیدة بین‌الفیلسوف أبوسلیمان‌و القاضی ابن‌سیار، فنحن ننطلق اذن من تجربة حیة ، لیست المسالة تحدید الصداقة بصورة نظریة ، وانما ینبغی علینا قبل کل شئ أن نعمد الی تحلیل‌الصلات‌الموجودة بین صدیقین ثم‌الی ملاحظة‌الاساس الذی ترتکز علیه صداقتهما ، وهذا الوصف‌الذی یجری‌فی اطار حواربین أبی سلیمان والتوحیدی یحتل مکانا واسعاً فی‌المقدمة. علی ان‌المؤلف یطلعنا بعد انجاز تلک اللوحة علی و هن‌الصداقة ، و علی‌العقبات التی تجعل تحقیقها أمرا عسیرا لابل مستحیلا فی بعض‌الاحیان ، فهو ان کان لایصف‌قط حیاة صدیقین ، لایعمد أیضا الی تعریف الصداقة ، فهو اذن یظل فی نطاق حسی ولایدع شعورالصداقة هذا یتبدی الا من بعد الصعوبات التی لابد من‌التغلیب‌علیها لبلوغ هذاالهدف الذی یکاد یکون متعذر المنال.

فالتوحیدی یعتمد طریقین للوصول الی تعریف الصداقة أو بالاصح لیترک‌لنا نحن أمر ایجاد تعریف لها ، فهنا ک من ناحیة ، التجربة الموفقة لصدیقین، و من ناحیة أخری العقبات التی تعترض طریق الصداقة ، ذلک هوالسیاق الواقعی لتفکیر أبی حیان.

لقد لاحظ‌التوحیدی تصرف صدیقین صدوقین هما ابوسلیمان وابن سیار ، وقد صارع الاول ذات یوم قائلاله:

"انی أری بینک و بین ابن‌سیارالقاضی ممازجة نفسیة ،وصداقة عقلیة،ومساعدة طبیعیة ، و موافات خلقیة.

فمن أین هذا و کیف هو؟.

فأجابه أبو سلیمان بقوله :

"یابنی : اختلطت ثقتی به بثقته بی‌فاستفدناطمأنینة و سکونا لایرثان‌علی‌الدهر ولایحولان بالقهر ، و مع‌ذلک فبیننا بالطالع و مواقع الکواکب مشاکلة عجیبة ، و

مظاهرة غريبة حتى أننا نلتقى كثيراً فى الارادات والاختيارت والشهوات والطلبات ان لهذين الصديقين حياة مشتركة حتى ولو كان أحدهما بمنأى عن الاخر.

لنستمع الى أبى سليمان يتابع كلامه :

«وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بامور حدثت لى فى ذلك الاوان، حتى كانها قسائم بينى و بينه أو كانى هوفيها أوهو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل .

قال ورايته قد ملكه التعجب من هذا و شبهه فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك و أن سهامنا واحدة وأنصابنا منها متساوية أوقريبة من التساوى، فعجب وازداد بصيرة فى اخلاص الصداقة وتوكيد العلاقة»

لئن يكن التشابه هوالسمة الغالبة التى تميز الصديقين ويحسّه من يشاهدهما لاول مرة فان من العسير أن لانلاحظ فروقا و هذا ما لايخفى على الفكر الثاقب لرجل كابى حيان «فلاغرو الحالة هذه أن يسأل التوحيدى أبا سليمان قلائلاله : كيف يصح هذا و أنت مطالبك فى الفلسفة و صورك مأخوذة من الحكمة و قنينتك مجموعة من- الحقائق ، وخوضك فى الغوامض والدقائق .

من الجلى أن أحدا لا يستطيع انكار هذه الفوارق و لكن ينبغى أن لا يغيب عن البال أنها مجرد فوارق سطحية "والاصل ابدا مخالف للفرع ، لاخلاف الضد ولكن خلاف آلشكل للشكل .

أهناك تباين فى المهنة والوطن ؟ ان هذا لايهم كثيراً طالما أن هناك انسجاما لنتسمع الى تتمة الحوار بين التوحيدى و أبى سليمان.

التوحيدى: هل تجد عليه أى " ابن سيار " فى شئى أو يجد عليك فى شيئى.

ابوسليمان: وجدى به فى الاول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئلية ، وأكتفى أنا أيضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة، و ربما تعاتبنا على حال تعرض ، عن طريق الكناية عن غيرنا

كأننا نتحدث عن قوم آخرين .

وهكذا ندرك‌مدى‌التمازج‌الذى‌تفترضه‌مثل هذه‌الصداقة . فالتوحيدى‌حين جعل أبا سليمان يفضى اليه بمكنوناته انما باح لنا بأسرار الصداقة الحقة . تشابه عميق وفوارق سطحية ، امتزاج و تفاهم تامان يتلخصان فى‌هذا التعبير :

"كمالو كان هو أنا".

تلكم هى‌الحالة المثلى للصديق المثالى .

علينا الان أن نوازن نتائج‌التجربة الموفقة لابى سليمان‌وابن‌سيار بالتعاليم‌التى تعرف معنى‌الصديق .

ان‌التوجيدى باحتكاله بفكر أرسطو عن طريق ما ترجم من‌آثار الاغريق الى العربية لم يكن يملك الا أن يقف مشدوها أمام قوة التعريف الذى حدد بـه‌هذا الفيلسوف الكبير فى‌القرن الرابع قبل‌الميلاد معنى الصديق .

لقد قال ارسطو «يكون‌المرء ازاء صديق لـه مثلما يكون ازاء نفسه ، لان صديقنا هو نحن ، فى شخص آخر."ف

لقد نقلنا لكم ايها السيدات و السادة تعريف ارسطو ، و هذا هوالتعريف الذى يسرده التوحيدى فى منتخباته ، ولكن علينا أن نعير انتباهنا الى الطريقة التى سردبها التعريف والى ما علق به‌عليه :

"قيل لارسطاطاليس الحكيم ومعلم الاسكندر : من‌الصديق ؟

قال : انسان هو أنت الا أنه بالشخص غيرك.

فهنا ك اذن عنصر حصرى قد اضيف الى تعريف ارسطو ، و لا نستطيع أن نقول اذا كان لهذا العنصر وجود فى مكان آخر من كتاباته ، و على اية حال فلا وجود له فى كتاب « اخلاق نيقوماخوس » كما أن تعليق أرسطو لايشيرالليه ، و نحن أميل‌الى الاعتقادبان الامر أمر عنصر أضيف تحريا لمزيدمن‌الدقة اقتضتهاحاجات الاوساط الفكرية فى ذلك العصر الى‌المنطق .

"سئل أبو سليمان عن‌هذه الكلمة وقيل له فسرها لنا فانها و ان كانت رشيقة

فلسنا نظفر منها بحقيقة ».

فقال : «هذا رجل دقيق الكلام ، بعيد المرام ، صحيح المعانى ، قد طاعت له الامور بأعيانها و حضرته بغيبها و شهادتها ، و كان ملهما مؤيدا ، و أنما اشار بكلمته هذه الى آخر درجات الموافقة التى يتصادق المتصادقان بها ، ألاترى أن لهذه الموافقه أولا ، منه يبتدئانها ، كذلك لها آخر ينتهيان اليه ، وأول هذه الموافقة توحد واخرها وحدة ، و كما أن الانسان واحد بما هو به انسان ، كذلك يصير بصديقه و احدابما هو صديق ، لان العادتين تصيران عادة واحدة ، والارادتين تتحولان ارادة واحدة ولاعجب من هذا فقد أشار الى هذه الغريبة الشاعر بقوله:

روحه روحى و روحى روحه ان يشأ شئت و ان شئت يشأ

فتعريف الصديق اذن بكونه "كأنه أنت فى شخص آخر" قد قبل فى النهاية واعتبر بمثابة مثل أعلى يسعى الى بلوغه ، والتعليق عليه هو وحده الذى يختلف من تعليق ارسطو.

من الاهمية بمكان أن نلاحظ أن التوحيدى يكرس قسما من آخر مقابساته لتعريف الصداقة والصديق ، فهو يسرد بالضبط تعريف أرسطو فيقول :

"سمعت النوشجانى يقول ولقد جرى الحديث و حكى فى عرضه الحدالذى للفيلسوف و هو : الصديق آخر هو أنت ، و يقال: الصديق هو أنت الا أنه بالشخص غيرك ، فقال :

الحد صحيح و لكن المحدود غير موجود.

ان تعليق النوشجانى و ان يكن اكثر فلسفة و تجريدا من تعليق أبى سليمان الأأن مؤدى كل من التعليقين واحد و هو أن تعريف الصديق كما هو مستوحى من ارسطو يرينا مثلا أعلى الى بلوغه و لكنه لايطابق ما فى الواقع.

ومهما يكن من أمر ، فان هذاالتعريف يظل - باتفاق عامة الناس - أعمق ما حددبه معنى الصديق ، و هوالذى يسترشد به الناس فى صلاتهم بعضهم ببعض.

وأن يبعث فى نفوسهم الامل فى أن تتحقق الصداقة المثالية فى هذاالعالم لقداحترس التوحيدى كل الاحتراس من تحديد معنى الصداقة ، فهو بعد أن أطلعنا على الحياة المثالية لصديقين ، يمحص العقبات التى تقف فى سبيل تحقيق الصداقة، انه لايريد أن يفضى الينا على الفور بتعبير يكون ثمرة الملاحظة والتفكير بجوهرهذا الخيرالثمين ، و هو بنوع خاص لايريد أن يجعل الناس يظنون بأن من السهل الكلام عن الصداقة ، وأن تحديد معناها هو بالتالى أمر يسير طالما أنها واسعة الانتشار ،وأبو سليمان يقول لمحدثيه : وليس يبعد هذا عليكم الا لانكم لم تروا صديقاً لصديق و لا كنتم أصدقاء على التحقيق ، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبس من الحيوان وينظمكم النوع المقتبس من الانسان ، و يؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار أوالصناعة أوالنسب ، ثم أنتم فى كل ذلك الذى اجتمعتم عليه وانتظمتم به وتألفتم له ، على غاية الافتراق ، للحسد الذى يدب بينكم و التنافس الذى يقطع علائقكم والتدابر الذى يثير البينونة منكم.

سيكون لناالحق ولاشك بأن نستمع الى الحقيقة بصدد ماهية الصداقة ولكن التوحيدى يريدقبل كل شئ أن يعرفنا على وساوسه و أن يجعلنا نمربالدروب التى مر بها فى هذه الحياة ، فمقابل الوضوح الذى تطالعنا به التعريفات المكتملة منذالبداية التى استهل بها كل من أرسطو و شيشرون كتابه ، نرى عند التوحيدى قلق البحث مشوباً بشى . من المرارة مردها خيبات الامل ، فأرسطو يؤكد "أن الصداقة هى نوع من الفضيلة ، على الاقل أن الفضيلة تواكبها دائما.

ويأتى شيشرون بعد أربعه قرون ليقول :

أعتقد أولا أن الصداقة لايمكن أن تنشا الا بين أناس خيرين ، مالصداقة الا الوئام فى كل شأن من شوؤن الآدميين ، مصحوبا بالروح الخيرة و بالمودة ، وانى لاعتقد جازما أننا لواستثنينا الحكمة فان الآلهة لم تنعم على الانسان بنعمة أفضل من الصداقة"

أما بالنسبه للتوحيدى فالصداقة خير لاغنى لاحدعنه ، واليه تتوق النفس بكل

قواها ، و هی تثیر فی کیان المرء کله توترا مبعثه الحرص علی الامساک بشئی ما تکاد تقبض علیه حتی یهم بالفرار منک:

،،الصداقة التی تدور بین الرغبة والرهبة شدیدة الاستحالة و صاحبها من صاحبه فی غرور والزلة فیها غیر مأمونة و کسرها غیر مجبور،،

یحاول التوحیدی تعداد العقبات التی تعترض الصداقة ، بملاحظة للصعوبات التی یلاقیها الناس فی وسطهم الاجتماعی خلال سعیهم لبلوغ هذا الهدف البعید المنال .

لنستمع الیه اذ یقول :

" فأما الملوک فقد جلوا عن الصداقة ولذلک لاتصح لهم أحکامها ولا توفی بعهودها وانما امورهم جاریة علی القوة و القهر والهوی و الشائق و الاستجلاء و الاستخلاف و تلک کلها عقبات تجعل من تحقیق الصداقة امراً مستحیلا ، وأما خدمهم و أولیاؤهم فعلی غایة الشبه بهم و نهایة المشاکلة لهم لانتسابهم بهم و انتسابهم الیهم و ولوع طرفهم بما یصدر عنهم و یرد علیهم وان الاستخذاء هو من الصداقة علی طرفی نقیض وأما التجار فکسب الدوانیق سد بینهم و بین کل مروّة و حاجز لهم عن کل ما یتعلق بالفتوة وأما الکتاب وأهل العلم فانهم اذا خلوا من التناقس والتحاسد و التماری و التماحک فربما صحت لهم الصداقة و ظهر منهم الوفاء و ذلک قلیل، و هذا القلیل من الاصل القلیل».

فما بالک اذن والحالة هذه بالطبقة الوضیعة من الناس الذین بدناءة نفوسهم و سوء جبلتهم یحق لهم أن یأخذوا من کل النقائص بطرف . من البدیهی أن الصداقة لاوجود لها بالنسبة لهوء لاء ، و لکن التوحیدی لا یعجزه أن یفسر بعمق بلبلة هذه الطبقة من الناس وأن یکشف عن العقبة الرئیسیة التی تقف حائلاً بینهم وبین الصداقة لانهم من دقة الهمم و خساسة النفوس و لوءم الطبائع علی حال لایجوز أن یکونوا فی حومة المذکورین و عصابة المشهورین الی آخر ما هنالک من صفات یفصلها أبو حیان . فالتعاسة اذن هی عقبة کادآء فی سبیل تحقیق الصداقة .

وان‌البلاغة التی‌یطالب بها أبوحیان بتحسین الاوضاع‌الاجتماعیة یتکشف لنا عن نفسه الکریمة.وفی ختام تعدادأبی حیان للرذائل‌والنقائص التی‌تقف حائلادون الصداقة‌یجعلنا نستنج بأنفسنا بأنه مادامت‌الرذائل هی‌العقبة الکادآء التی‌تحول‌دون تحقیق الصداقة ، فالفضیلة و حدها هی القادرة علی أن تفضی بنا الیها . و هو مقتنع بانه‌متی‌ازیلت کافة العقبات ، فان‌الصداقة یمکن عند ذلک أن تسود .

و أما أصحاب الدین‌والورع فعلی‌قلتهم ربما خلصت لهم‌الصداقة‌لبنائهم‌ایاها علی‌التقوی و تأسیسها علی أحکام الحرج و طلب سلامة‌العقبی .

لقدأمکننا‌أن‌التوحیدی یأخذ التجربة دوما بعین‌الاعتبار ، کأن یعمد‌الی‌وصف الصداقة‌بلمسات متتالیة،و کانه علیم بخفایا النفس‌البشریة ، فشعرالتوحیدی بتشابک العواطف الانفعالیة عندالانسان، و لم‌یفته أن‌یلاحظ مابین‌الصداقة‌والعواطف‌الاخری القریبة منها کالحب والمودة و التعلق من فروق ، و یحسن أن نلاحظ من ناحیة أخری أن اللغة العربیة‌تمتاز عن‌الفرنسیة من حیث الغنی اللفظی فی‌التعبیر عن‌الفروق الدقیقة لبعض سمات الحب والمودة .

سنری أن‌التوحیدی یمیز بنوع خاص بین‌العواطف التی یکنها المرء لذویه و بین تلک التی یکنها لصدیقه ، و یزید علی ذلک بأن یضع الصدیق و المعشوق و جها لوجه و أن یصدر بصددهما حکماً قیماً و یحبیب فی نهایة الامر علی السؤال التالی:

ماهو الفرق بین‌الصداقة و العلاقة؟

لنستمع الی‌الطرفة التالیة التی أوردها التوحیدی والتی تزینا قوة الوشائج العائلیة عند البدو و بین خلال هذه الطرفة استطاع‌المؤلف أیضا أن یرینا المکانة الرفیعة التی یحتلها الصدیق فی سلم العواطف البشریة حین ترک الکلام لاحد هوءلاءالبدو .

حدثنی أبو حامد العلوی و کان من الحجاز سنة سبع و ثلاثین و ثلاثمائة بمدینة السلام قال: رمی أعرابی من بنی هلال عن حیه الی أطراف الشام فقیل له من خلفت وراء ک قال : خلفت والداو والدة واختا و ابن عم و بنت عم و عشیقا و صدیقا .

قیل له : فکیف حنینک الیهم ، قال : أشد حنین . قیل : فصفه لنا ، قال : أما حنینی الی والدی فللتعززبه فان الوالد عضدور کن یعاذ به ویوءوی الیه . و اما نزاعی الی الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذی لایعرج الی الله مثله ، وأما شوقی الی ألاخت فللصیانة لها والتروح الیها ، و أما شوقی الی ابن الم فللمکاتفة له والانتصاربه ، واما ابنة العم فانها لحم علی وضم اتمنی أن تشبل علیها بالرقة أو أصلها ببعض من یکون لها کفوءا و یکون لنا أیضا الفاً ، و أما صابتی بالعشیق فذاک شیيء أجده بالفطرة و الارتیاح الذی قلما یخلو منه کریم له فی الهوی عرق نابض و فی المجون جواد راکض ، وأما الصدیق فوجدی به فوق شوقی علی کل من نعته لک.

ان لکل هذه العواطف العائلیة جذره الاجتماعی العمیق ، کما أنها تبقی ضمن نطاق الواجب والمسئولیّة، فالرجل نفسه الذی یلقی من أبیه الدعم و التأئید ومن أمه المودة والدعاء له ، ینبغی علیه أن یمنح اخته و ابن عمه من الدعم والحمایة والعطف مثل ذلک ، و عندها ندرک أن المکانة الرفیعة التی یتبوؤها الصدیق و هوالذی لیس مدینا للقرابة بشئی ، کما أن مصدر عواطفه بعید کل البعد عن الغرض و المصلحة .

العشیق والصدیق .

یکتشف التوحیدی دوما للصداقة صفات تسموبها علی سائر العواطف الاخری فهو علی هذا یضع الفرق بین العشیق و الصدیق، لنترک الکلام للبدوی الذی استمعنا الیه قبل قلیل ، انه یقول:

أما صبابتی بالعشیق فذاک شئیء أجده بالفطرة والارتیاح الذی قلمایخلومنه کریم‌له فی‌الهوی عرق نابض و فی‌المجون جواد راکض ، و أما الصدیق فوجدی به فوق شوق الی کل من نعته لک.

فغرام‌العشیق انما یصدروالحالة هذه عن الغریزة و یرین‌علیه الزام‌الطبیعة تماما مثلما یرین الزام القرابة علی‌العاطفة العائلیة ، و لکی یقنعنا التوحیدی‌یرینا کل ماهناک من فارق بین‌الصدیق و العشیق لنستمع الیه یقول : « وسمعت ابن‌مانویه القمی العالم یقول : قال جعفربن محمد: مباغاة‌الصدیق أعبث‌بالروح‌وأندی‌علی‌الفؤاد من‌مغازلة المعشوق لانک تفزع بحدیث المعشوق الی الصدیق و لاتفزع بحدیث الصدیق الی المعشوق».

وبعبارة أخری ، ان المرء یفضی الی الصدیق بأسرار حبه‌بینمالا یبوح‌لعشیقه بأسرار حبه.

الصداقة والعلاقة.

فی سیاق مناقشة حضرها أبو سلیمان و جری فیها الادلاء بکثیر من‌الافکارالتی تمت الی الصداقة بصلة قریبة أو بعیدة یطرح التوحیدی سوءالایراه جوهریاقلت : فما الفرق بین‌الصداقة و العلاقة ؟ ان مولفنا الان لایعمد الی‌الاستعانة بالتجربة، و انما یتحری عن تعریف عمیق ، انه یرید أن ینفذ الی صمیم العلاقة و الحب...علی السواء و سئواله هذا شخصی جدا ، کما یدل علی ذلک استعماله ،کلمة أقول أی بصیغة التکلم ، قلما نقع علیها فی منتخبات التوحیدی . ثم من ناحیة أخری ، یبدو أن اختیارالالفاظ قد أملاه علیه الجواب المتوقع ان جاز لنا هذاالتعبیر والواقع أن‌الکلمات التی اعتمدها التوحیدی‌للدلالة علی الصداقة و الحب لم تأت اعتباطا ففی‌اللغة العربیة تستخدم‌للدلالة علی العاطفتین کلمات عدیدة تبعث‌مختلف‌الملامح بالنسبة للصداقة ، وقع اختیارالتوحیدی علی لفظة (صدق) التی تدل علی‌مفهوم‌مجرد صدق‌مقال الحق ، أخلق ، و لقد کانت اللفظة الاولی التی‌استخدمت فی‌المقدمة هی لفظة الالفة.

اننا لانستطيع فصل المعنى الاصلى للجذرين (صدق) و (علق) من التعريف الذى يقدمه التوحيدى لكل من الصداقة و العلاقة ، فالصلة التى بينهما هى من - البداهة بحيث لايسعنا الا أن نرى أن المؤلف قد قصد الى ذلك. من بين الصور التى استخدمها "سان اكزبرى" فى الامير الصغير لتحديد الصداقة الحوار التالى:

«قال الثعلب: لاأستطيع أن العب معك و أنالست مروضا للامير - والذى تعنيه كلمة روض الثعلب - انها تعنى أوجد روابط ، انك اذا روضتنى أصبح كل واحد منا بحجة الى الاخر، انك تصبح بالنسبة لى الوحيد فى هذا العالم كما انى اصبح فى هذا العالم الوحيد بالنسبة اليك، انك تغدو مسؤولا عما روضته». وطرح فى المقابسات لابى حيان ، سؤال عن الصديق و الصداقة الحقيقية ، لنستمع اليه يقول :

«سمعت النوشجانى يقول ، و قد جرى حديث الصديق و حكى فى عرضه الحد الذى للفيلسوف أرسطاطاليس و هو الصديق آخر هو أنت ، و يقال الصديق هو أنت الا أنه بالشخص غيرك فقال : الحد صحيح ، و لكن المحدود غير موجود».

ماهو خير مايميز الصداقة ؟. الصداقة أذهب فى مسالك العقل و أدخل فى باب المروّة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، و أشبه بذوى الشيب والكهولة وارمى الى حدود الرشاد و آخذ باهداب السداد، و أبعد عن عوارض الغرارة والحداثة». فالتوحيدى يميز اذن فى الصداقة، أسمى صفات الانسان و أقدرها على كبح جماح غرائزه.

أما العلاقة فهى من قب العشق و المحبة ، و الكلف و الشعف ، والتتيم و التهيم ، والهوى والصبابة ، والتدانف و التشاجى ، و هذه كلها أمراض أو كالامراض بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، و ليس للعقل فيها ظل و لا شخص، ولهذا تسرع هذه الاعراض الى السباب من الذكران و الاناث ، وتنال منهم و تملكهم ، و تحول بينهم وبين أنوار العقول و آراء النفوس و فضائل الاخلاق، و فوائد التجارب.

ويبرهن التوحيدى عن منطق كامل فى التضاد الذى يريد ابرازه بين الصداقة

والحب ، وان كنا نود أن نأخذ عليه هذا المنطق بالذات بمقدار مايؤدى به هذا المنطق نوعا ما الى تشويه عاطفتين هما فى الواقع أشد تشكابكا بكثير ، و مهما يكن من أمر ، فان علينا أن نقربأن أبا حيان قد استطاع بهذا التضاد الاخاذ أن ينفذ الى جوهر الصداقة والحب ، ولئن كان علينا ان نتم تفكيره بهذا الصدد فانا نقول بأن عاطفة الحب يمكن ان تخالط الصداقة ، و ان الحب يريح اذا تحلى بصفاتها .

ان التوحيدى يمثل الصداقة بأشد ما فيها من نقاء ، و هو يعترف لها بصفات يبدوانه ينكر وجودها فى مشاعر نبيلة كتلك التى تنطوى عليها المحبة العائلية .

فهل هذا ثمرة تجربته اوانه مطلب من مطالب روحه الباحثة عن مثل اعلى؟

يقابل التعريف الاكمل للصديق تحليلاً تجريبياً للصداقة يكشف عن اسمى ما تنطوى عليه من المعانى . والواقع ان الصداقة مهما تكن مدهشة نادرة الوجود الا انها بالنسبة لابى حيان موجودة فى الواقع و علينا ان نؤمن بها . ولذا فان اباحيان التوحيدى ، الذى هو مفخرة من مفاخر الاواسط الفكرية والادبية فى بغداد؛ والذى استطاع ان يسيطر على حساسيته، لكى يكتب لنا صفحات رائعة و عميقة عن الصداقة ، انه الى جانب ارسطو و شيشرون عملاق من عمالقة الادب العالمى و جهبذة من جهابذته فى كل زمان و مكان .

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی